الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

العمل الطويل

وبعد وصوله الى لندن بشهور قليلة ، جذب انتباه كارل ماركس موديلا متحركا لماكنة قطار تعمل بالكهرباء كان معروضا في نافذة محل في ريجينت ستريت. ويورد شاهد ان 'ماركس اصبح مهتاجا و ومستثارا '، ليس من وقع الابتكار عليه بل من العواقب الاقتصادية التي يتضمنها. واخبر زملاءه المدهوشين 'تم حل المشكلة-اما النتائج فيصعب التنبؤ بها. يجب ان تولد الثورة السياسية ، بالضرورة ، من رحم الثورة الاقتصادية ، لأن الثورة السياسية ما هي الا تعبير عن الثورة الاقتصادية.'ولا يبدو محتملا ان اي شخص آخر توقف عند هذا المحل في ريجنت ستريت ليفكر في النتائج الاقتصادية والسياسية لحصان طروادة الحديدي هذا ، اما المهم ، بالنسبة لماركس ، فان موديل ماكنة القطار يمتلك قدرات هائلة من العسير تحديدها.

(٢-٢)

تأليف: فرانسيس وين

ترجمة: سعدي عبد اللطيف

وبعد حصوله على هوية تتيح له دخول مكتبة المتحف البريطاني في شهر حزيران/يونيو ١٨٥٠، قضى معظم السنة التالية يقرأ كتب الاقتصاد والاعداد السابقة لمجلة الأيكونومست. وادعى في شهر نيسان (أفريل) عام ١٨٥١ انه 'قرأ، حتى الآن، معظم مواد الاقتصاد بحيث سأنتهي، تماما، من قراءة بقية مواد الاقتصاد في غضون الخمسة اسابيع المقبلة. وبعد انجاز ذلك ، سأكمل قراءة مواضيع الاقتصاد السياسي في البيت، لأتفرغ، بعدها، لدراسة فرع آخر من فروع المعرفة في المتحف البريطاني .'وكان يجلس في غرفة القراءة في المتحف البريطاني من الساعة التاسعة صباحا حتى الساعة السابعة مساء في معظم الايام، لكن بدا له انه لاتوجد، هناك، نهاية للواجب الذي القاه على عاتقه.

وكتب في شهر حزيران (يونيو) :' الموضوع الذي اعمل عليه معقد حد اللعنة، ومهما بذلت من جهود، لن انتهي منه الا في غضون ستة الى ثمانية اسابيع على الاقل. وهناك، اضافة الى ذلك، معوقات دائمة ذات طابع عملي، وهي حتمية تتمثل في الظروف التعيسة التي تحاول فرض البلادة علينا .... '

ومنذ لحظة وصولهما الى لندن، جابه ماركس وزوجته جيني ازمة تلو اخرى. فهناك ثلاثة اطفال، ولد رابعهم في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ,١٨٤٩ وجرى طردهم من سكنهم في تشيلسي في شهر آيار/ مايو ١٨٥٠ لعدم قدرتهم على دفع الايجار، ووجدوا سكنا مؤقتا في دين ستريت في حي سوهو، حيث قضوا صيفا تعيسا وصل الى حد الفقر المدقع قبل الانتقال الى مسكن دائم يقع في نهاية الشارع. واصبحت جيني حاملا مرة اخرى ومريضة على الدوام. وهب انجلز الى انقاذهم بان ضحى بطموحاته الصحفية في لندن وعاد للعمل في مكتب أرمين وانجلز في مدينة مانشستر حيث بقي هناك عشرين عاما. وبرغم ان انتقال انجلز الى مانشستر كان يهدف، في الغالب ، الى تقديم العون لصديقه الألمعي المفلس، الا انه كان هدفاً آخر ايضا، يتمثل في ان يلعب انجلز نوعا من دور فصيل استطلاع خلف خطوط العدو، كي يرسل الى ماركس تفاصيل سرية مهمة عن تجارة القطن وملاحظاته كخبير عن حالة الاسواق الدولية- اضافة الى دفعات منتظمة من النقود تتسرب من صندوق الادخار البائس او من الارباح الحرام الموجودة في الحساب المصرفي للشركة.

و بقيت عائلة ماركس، حتى مع هذه الاعانات النقدية، تعيش مستوى من الفقر يصل الى حدود اليأس. فالأثاث وتجهيزات الغرفتين كلها مكسورة وبالية او ممزقة، وتوجد طبقة كثيفة من الغبار على كل شيئ. وينام جميع من في الشقة- الوالدان، الاطفال ومدبرة المنزل-في غرفة صغيرة في الخلف، اما الغرفة الاخرى فتستخدم للدراسة، للعب الاطفال وكمطبخ. واستطاع جاسوس للشرطة البروسية ، عبر الخداع، من القيام بزيارات عدة الى شقة ماركس ، فكتب تقريرا رفعه الى اسياده في برلين يقول فيه ان ماركس 'يحيا حياة فكرية بوهيمية حقيقية... وبرغم انه لايعمل احيانا لأيام عدة، لكنه يعمل، في الغالب ، ليل نهار من دون كلل وبصبر كبير عندما يجد امامه اعمالاً كثيرة عليه تنفيذها. ولا يتبع اوقات محددة للأخلاد للنوم او الاستيقاظ. ويبقى يعمل، اغلب الاحيان، طوال الليل، ثم يتمدد عند الظهر، بكامل ملابسه، على الاريكة، ليغط في نوم عميق، غير آبه برواح ومجيئ العالم كله. 'وتتخلل، هذا الوجود الفوضوي، مآس منزلية. فقد توفي، فجأة، الطفل الاصغر غايدو جراء نوبة من التشجنات في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٥٠، وتوفيت ابنتهما فرانسيسكا التى تبلغ عاما واحدا في عيد الفصح عام ١٨٥٠ بعد نوبة حادة من الالتهاب الشعبي، وتوفي الابن المحبوب الاخر ادغار، جراء داء السل، في شهر آذار عام ,١٨٥٥ وفقد ماركس صوابه من الحزن وتقدم الى الامام، عندما كان الكفن ينزل في القبر، وكاد يرمي نفسه في القبر مع ابنه، وفزع المعزون ومنعته الأيادي في اللحظة الاخيرة.

وكتب انجلز رسالة تعزية بعد موت فرانسيسكا 'ليت ان هناك سبيلا ما تستطيع من خلاله الانتقال الى منطقة ذات جو صحي افضل ومسكن اكثر رحابة. 'واذا كان الفقر المدقع قتل فرانسيسكا ام لا، هيمنت هذه الفكرة، بالتأكيد، على حيوات عائلة ماركس. فالدائنون الغاضبون- القصابون ، الخبازون وموظفو المحاكم المكلفين استرداد الديون- واصلوا، كل يوم تقريبا، طرق الباب الامامي مطالبين بدفع الديون.

وكتب ماركس في شهر شباط/ فبراير ١٨٥٢ قائلا 'وصل الامر،الاسبوع الماضي، الى حد مضحك، بحيث لم اعد استطيع الخروج من الشقة لعدم قدرتي على استرداد معطفي الذي وضعته قيد الرهن، ولم اعد آكل اللحم لعدم استطاعتي الاقتراض .'وكشف لانجلز، بعدفترة من السنة نفسها 'لم اعد اطعم عائلتي، في الايام الثمانية الماضية، الا الخبز والبطاطا فقط، اما اذا كان بمقدوري، اليوم، اطعام عائلتي ايا من الخبز والباطا، فاني اشك في ذلك.... كيف استطيع ايجاد مخرج من هذه الورطة الجهنمية ؟

.'في ذلك الوقت، كان ماركس يحصل على مرتب منتظم كمراسل في اوربا لصحيفة نيويورك ديلي تريبيون حيث كان يكتب مقالين في الاسبوع لها مقابل جنيهين استرلينيين (٢ باوند)، لكن حتى مع معونات انجلز الاضافية لم يكن هذا يسد رمق العائلة —مما اضاف سببا آخر على عجزه عن تركيز ذهنه على تحفته الاقتصادية.

وكتب ماركس في شهر حزيران/يونيو ١٨٥١ ' لكن، برغم كل ذلك، فاني اوشك ، سريعا،على الانتهاء من تأليف الكتاب، و تجيئ احيانا فترات اجبر فيها على الانقطاع عن الكتابة. 'ويظهر هذا جانبا كوميديا من عدم معرفة الذات : فماركس يستطيع الانقطاع تماما عن الاصدقاء وارتباطاته السياسية، لكنه لا يتمتع، ابدا، بترف الانقطاع عن الكتابة-وعلى الاخص ألانقطاع عن الاستمرار في تأليف هذا الكتاب، الذي يمثل خلاصة وافية واسعة من الاحصائيات واالتاريخ والفلسفة التى كشفت للعيان،ولاول مرة، الاسرار المخجلة للرأسمالية. وكلما توسع ماركس في البحث والكتابة كلما ابتعد موعد اكمال تأليف الكتاب. وكتب انجلز في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٥١ ناصحا ماركس 'اكرر ان اهم شيئ يجب ان تفعله، ومن دون اي تأخير، ان تنشر علنا وبكتاب يزخر بالتفاصيل... من الجوهري تماما ان تكسر سحر الترقب الذي خلقته بغيابك الطويل عن سوق الكتب في المانيا. 'ووضع المشروع، جانبا، مرة اخرى، ضحية، ل 'الانقطاعات المستمرة .'فبعد الانقلاب ، مباشرة، والذي جرى في فرنسا في شهر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٨٥١ انكب ماركس على كتابة ماركس مؤلفه الشهير الثامن عشر من برومير للويس بونابرت بطلب من الاسبوعية الامريكية الجديدة داي رفلوشين. وبذرت السنوات القليلة التالية، على الاغلب، في الخصومات وتسديد النقاط في مواضيع مثيرة للجدل مع زملائه المهاجرين. وجادل ماركس ان هذه كانت تدخلات سياسية جوهرية اكثر من كونها تجليات عن غضبه لأن مسيحيي الاشتراكية الدجالين-اذا ماتركوا من دون فضح-سيجتذبون الى صفوفهم جماهيرا اكثر مما تفعله الملكيات الاصيلة. واعلن ماركس 'انني منهمك في صراع حتى الموت مع هؤلاء الليبراليين المزيفين.'

وما دفعه الى الرجوع، في آخر الأمر، الى دراساته الاقتصادية الوصول الجلي للزلزال المالي الدولي في خريف عام ١٨٥٧ والذي جرى انتظاره طويلا. ابتدأ الزلزال بانهيار بنك في نيويورك، لتنتشر الازمة، كأنها القيامة تعدو باقصى سرعتها، في النمسا، المانيا، فرنسا وانجلترا. وهب انجلز، الذي كان يتماثل للشفاء من مرضه، بالعودة سريعا الى وظيفته في مدينة مانشستر ليكون شاهدا على المهزلة —هبوط الاسعار المريع، الافلاس اليومي لاصحاب المال والذعر الذي عصف على الاسواق المالية. و كتب انجلز ' كان الجو العام، هنا، في بورصة ﴿ القطن ﴾ يبعث على البهجة حقا. اما زملائي فقد سخطوا تماما على تفجر معنوياتي العالية المفاجئ والمتعذر تفسيره لهم. 'واصابت ماركس، ايضا، عدوى لحظة الروح الميلودرامية. وانهمك كل يوم، طول شتاء ١٨٥٧-١٨٥٨، في دراسته حتى الساعة الرابعة صباحا، مقارنا بين نصوصه الاقتصادية 'من اجل ان أتأكد، على الاقل، من وضوح الخطوط العريضة قبل ان يجيئ الطوفان .'لكن الطوفان لم يجئ ابدا، غير ان ماركس واصل في بناء سفينته، مقتنعا انه سيحتاجها عاجلا أم آجلا. وعندما برهنت حساباته الاولية عدم ملاءمتها للصيغة الاقتصادية المعقدة، انهمك في دورة مراجعة سريعة لعلم الجبر موضحا انه 'وفقا للمصلحة العامة يتعين عليه ، وهذا امر اساسي مطلق، بحث المادة تفصيليا.'

اما كتاباته التي سطرها اثناء الليل والتي بلغت ٨٠٠ صفحة، فهي لم تر النور الى ان اطلقها من الارشيف معهد ماركس وانجلز في موسكو عام ١٩٣٩، ولم تصبح متوفرة على نطاق واسع الا عند نشر طبعة المانية عام ١٩٥٣ بعنوان (خطوط عامة في نقد الاقتصاد السياسي). وبرغم سعة الكتاب، فان هذه الغروندیسة تمثل عملا مؤلفا من شظايا-وصفه ماركس نفسه بانه خليط من الافكار-لكنه كان بمثابة الحلقة المفقودة بين مخطوطات باريس عام ١٨٤٤ واول مجلد لرأس المال لعام (١٨٦٧) والذي يقدم توضيحا لاستمرارية افكاره. وفي الغروندیسة مقاطع طويلة عن الاغتراب ، الديالكتيك ومعنى النقود والتي تردد صدى مقاطع من مخطوطات عام ١٨٤٤، اما الفرق الملفت للنظر، تماما، فان ماركس مزج، هنا، بين الفلسفة والاقتصاد في حين كان يتعامل بين هذين العلمين كفرعين منفصلين. (كما لاحظ الكاتب الالماني فرديناند لاسال فان ماركس، هنا 'هيغل وقد استحال اقتصاديا ، و ريكاردو وقد استحال اشتراكيا(.'

وفي مكان آخر من هذا المؤلف، يمكن قراءة تحليل العمل-القوى و فائض القيمة كانه مسودة للشرح الكامل لهذه النظريات في رأس المال.

وكان ماركس يشير ، غالبا الى جهوده في هذه الفترة بانها 'خربشات في الاقتصاد '،و تتضمن، عبارة الاستخفاف هذه ،بالتاكيد، احساس بالذنب. فحتى عام ١٨٤٥ كان يتظاهر بانه على وشك الانتهاء من بحثه في الاقتصاد السياسي، ويكرر، في السنين الثلاثة عشرة التالية، وينوع، في اوقات مختلفة، من ثيمات هذه العبارة بحيث تصاعدت توقعات اصدقائه الى مستوى لايطاق تقريبا. وبالحكم على الوقت الذي امتد طوله، افترض هؤلاء الاصدقاء ان هذاالمؤلف سينطوي، حقا، على حزمة من المتفجرات المدوية ستؤدي الى هد صروح الرأسمالية التي لاأساس لها. وساعدت مراسلات ماركس المنتظمة مع انجلز في مانشستر على ادامة الاوهام على ان بحث ماركس يتقدم بخطوات واسعة. فقد اعلن ماركس بابتهاج شديد في شهر كانون الثاني/يناير عام ١٨٥٨ انه 'اكمل عملية تدمير نظرية الربح كما تصورتها حتى الآن ، 'اما في الواقع، فان كل مافعله ماركس بعد تلك الايام الطويلة المضنية في المتحف البريطاني والليالي الاكثر طولا التي صرفها في شقته كان عبارة عن اكوام من الملاحظات المتناثرة لم يجر نشرها، ملأى بافكار موجزة كيفما اتفق.

وعرض فرديناند لاسال عام ١٨٥٨ ترتيب عقد لماركس مع ناشر في برلين يدعى دنكر.

واخبر ماركس الناشر بان ' كشفه النقدي لنظام الاقتصاد البرجوازي '، سيتوزع على ٦ كتب، يجب نشرها تباعا —١-رأس المال (ويحتوي بضعة فصول تقديمية). ٢- ملكية ملاكي الارض. ٣- العمل المأجور. ٤- حول الدولة. ٥- التجارة الدولية. ٦- السوق الدولية. 'وسيكون المجلد الاول حاضرا للطبع في شهر آيار (مايو)، يتبع ذلك المجلد الثاني في غضون بضعة اشهر وهكذا دواليك. على اية حال، وحالما يواجه ماركس، على الاغلب، مواعيد نهائية، ينتفض جسده احتجاجا. وافضى ماركس بسره الى انجلز في شهر نيسان (ابريل) عام ١٨٥٨ ' اشتد علي المرض، هذا الاسبوع، من آلام الكبد بحيث لم اعد قادرا على التفكير، القراءة ، الكتابة او عمل اي شيئ حقا، .'ووجد آلام الكبد موجعة الى حد انه كلما جلس وكتب بضع ساعات 'توجب عليه التمدد للراحة التامة لعدة أيام .'

هذه المناحة كانت مألوفة. وعلق انجلز بعد مرور سنين عديدة عندما كان يعيد قراءة بعض الرسائل القديمة 'باللعجب،اعتدنا تماما على هذه المعاذير لعدم اكماله المجلدات .'واعترف ماركس نفسه بان 'العلة تتوالد، دائما، في ذهني .' لكن عدم مواظبته على العمل، كانت له، احيانا، تبريرات حقيقية : فمرة يهجم على ابنته اليانور السعال الديكي، وتطرح زوجته 'نوبات عصبية ,'والمسترهن والبائع بالتقسيط يطالبان صارخين بدفع ديونهم. وكتب ماركس مداعبا بحزن، 'لا اعتقد ان اي احد جرب الكتابة عن " النقود " وهو مفلس تماما. '

وبرغم عدم تسطيره اي شيئ ،تقريبا، خلال الصيف كله، الا انه وعد في نهاية شهر ايلول/سبتمبر ١٨٥٨ بان المخطوطة ستكون جاهزة لأرسالها بالبريد في 'غضون أسبوعين '-لكنه اقر بعد شهر ان 'اسابيع عدة ستمضي قبل ان يكون بمقدوره ارسالها بالبريد .'وتآمركل شيئ ضد ماركس: حتى ازمة الاقتصاد الدولي التي تلاشت بعد وقت قصير، ما اشعلت فيه مزاجا حادا ادى الى ' وجع اسنان مريع جدا .'

وفي اواسط شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، بعد مرور ستة اشهر على الموعد النهائي الاولي تساءل لاسال من ماركس، برقة، نيابة عن الناشر الالماني فيما اذا اقترب موعد الانتهاء من الكتاب. واجاب ماركس بان المماطلة في الموعد 'لا تدل الا على المعاناة التي يمر بها والثمن المستحق مقابلها ". واوضح ذلك بالقول:

يبدو اسلوب اي شيئ كتبته افسدته آلام الكبد. وعندي دافع مضاعف بالا اسمح بهذا العمل ان يتلف على اساس طبي :

فهو ثمرة جهود خمس عشرة سنة من البحث، اي، افضل سنوات العمر. يحتوي على وجهة نظر مهمة عن العلاقات الاجتماعية مدعمة بحجج علمية ولأول مرة. لهذا السبب اكون ممتنا للحزب ان لا يتعرض هذا المؤلف لأي تشويه عبر اسلوب خشبي ثقيل يتساوق مع كبد عليل....

ساكمل الكتاب في غضون اربعة اسابيع من الآن،لاني بدأت، توا، الكتابة الحقيقية.

وتوجب على لاسال ان يصاب بالدهشة، فقد جرى تطمينه في شهر شباط (فبراير) الفائت بان النص يمر 'مراحله النهائية .'واصيب انجلز، ايضا بالصدمة. وبعد ارسال ماركس الرزمة آخر الامر ، الى برلين في شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٨٥٩ اخبر انجلز: 'ان عدد صفحات المخطوطة يصل الى ﴿ ١٩٢ ﴾ صفحة -ولا تصاب بالحيرة اذا قلت لك ان عنوان الكتاب هو" راس المال بوجه عام "، ولا يتضمن شيئا ذا بال، حتى الآن، فيما يخص راس المال .'وبعد كل تلك الجعجعة الصاخبة والمديدة، لم يقدم ماركس اي شيئ ماعدا كتاب نحيف، نصفه عبارة عن ملخصات لنظريات اقتصاديين آخرين، اما القسم الوحيد الذي مايزال يحتفظ بحيويته فهو عبارة عن مقدمة لسيرته الذاتية عن كيفية قراءته ل هيغل و كيف ان عمله الصحفي في جريدة راينسز زيتنغ قاده الى الاستنتاج بان 'التحليل البنيوي للمجتمع المدني يمكن االعثور عليه في الاقتصاد السياسي .'واحكم ماركس رباطة جأشه متباهيا بمبالغة،عندما بدأ يلوح في الافق يوم نشر الكتاب الاول، مصرحا بتوقعاته ان يترجم الكتاب-الذي اصبح عنوانه الآن اسهامة في نقد الاقتصاد السياسي- وسيتم الاعجاب به في ارجاء العالم المتحضر. لكن اصدقاء ماركس اصيبو ابالصدمة :فالاشتراكي الالماني المعروف ولهلم ليبكنخت (اغتيل لاحقا مع روزا لوكسمبورغ) قال ان الكتاب كان مخيبا جدا للآمال. ونشرت عروض قليلةعنه. واشتكت جيني ماركس قائلة 'ان الامال التي رعيناها خفية تجاه كتاب كارل تحطمت جميعها بمؤامرة صامتة حاكها الالمان .'

اما الكتاب الثاني فقد ايقظ الغارقين في سبات عميق.

كان من المفروض نشرالكتاب الثاني بعد بضعة شهور. وقام ماركس، الآن، بتعديل الموعد النهائي قليلا، فارضا 'حدا اقصى 'يتمثل في شهر كانون الاول/ ديسمبر عام ١٨٥٩ لإكمال أطروحته عن راس المال التي جرى حذفها، من دون تعليل، من اسهامته النقدية. لكن ملاحظاته الاقتصادية في السنه التالية بقيت على مكتبه من دون ان تمس لأنه واصل الكتابة ضد كارل فوغت البروفسور في جامعة بيرن عبر مقالات في الصحف ومجابهة دعاوى في المحاكم بتهم التشهير ونشر كتاب كامل حول الموضوع. وحالما انتهى ماركس من هذه المعركة الجانبية، احتفل ملك بروسيا الجديد بتتويجه واصدر عفوا عن جميع اللاجئين السياسيين، مما انعش امال ماركس بالعودة الى الوطن واطلاق جريدة على غرار نيو راينسش زويتنغ. وحثته هذه الاخبار على محاولة طويلة - وغير مجدية-لجمع مايكفي للتوجه الى المانيا في ربيع ١٨٦١، رحلة يمولها فرديناند لاسال، تتبعها ضيافة بالمقابل عندما قرر لاسال المجئ الى لندن من اجل المعرض الثاني العظيم عام ,١٨٦٢ وتذمر ماركس خلال الاسبوع الثالث من محنته، 'لقد ضيع هذا الزميل وقتي، والاكثر من ذلك عبر عن رأي ابله بالقول انني مادمت غير منشغل " بالتأليف " في الوقت الراهن، بل في مجرد " العمل النظري " فمن المستحسن،بالتالي ، قتل الوقت معه! 'ان سخرية لاسال تجاه 'النظري ' تحولت الى المهماز الذي يحتاجه ماركس لاكمال كتبه والتي عطلها بشكل كارثي في مبارزته مع البروفسور فوغت. وبعد فراغه من تكليفات صحفية قليلة، التجأ ، مجددا، الى غرفة القراءة في المتحف البريطاني، لجمع الذخيرة لشن الهجوم الاخير على الرأسمالية. وملأت الملاحظات التي دونها بين عامي ١٨٦٢ و ١٨٦٣ ١٥٠٠ صفحة.

واوضح قائلا 'ساتوسع في هذا المجلد مادام اؤلئك الالمان الاوغاد يحترمون قيمة الكتاب على اساس سعته التكعيبية .'اما المشاكل النظرية التي مني بالهزيمة امامها، حتى الآن، فقد اصبحت واضحة وشفافة ومنعشة مثل كأس من النبيذ الابيض. خذ مثلا مسالة الايجار في الاراضي الزراعية- او 'مشكلة الايجار الخرافية '، كما وصفها. ' لقد ساورتني، لفترة طويلة، شكوك في الصحة المطلقة لنظرية ريكاردو (اقتصادي بريطاني ١٧٢٢ -(1823 ، وغصت عميقا الى قاع هذا المحتال. 'وريكاردو لم يفعل اي شيئ عدا انه، ببساطة، خلط خطأ بين القيمة وسعر الكلفة. فاسعار المنتجات الزراعية، برأيه، اعلى من القيمة الحقيقية (اذا قيست بالزمن — العمل المتضمنة فيها) وبالتالي فمالك الارض يحشو في جيبه الفرق في شكل الايجار الاعلى، لكن في ظل نظام اشتراكي فان فائض القيمة هذا سيجري اعادة توزيعه لمصلحة المزارعين. وحتى لو بقي سعر السوق كما هو، فان قيمة البضائع- خصوصيتها الاجتماعية-ستتغير تماما.

وولدت بهجة ماركس في تقدم ابحاثه تفاؤلا مفرطا. وكتب، في نهاية عام ١٨٦٢، الدكتور لودفيغ كوغلمان، وهو احد المعجبين باعمال ماركس، من هانوفر، يسأله متى يتوقع اكمال بقية اسهامة في نقد الاقتصاد السياسي فاجابه ماركس 'أما الجزء الثاني فقد انتهيت منه، الان، أخيرا، ولم يبق غير كتابة نسخة نظيفة ووضع اللمسات الاخيرة قبل ان يذهب الى المطبعة. 'وكشف ،ايضا، ولأول مرة ، انه تخلى عن العنوان الثقيل والذي كان يحمل اسم اسهامة في نقد الاقتصاد السياسي، المجلد الثاني. وبمنطق ما معكوس، فان الكتب الكبيرة تستحق عناوين قصيرة، وهكذا 'سيظهر الكتاب تحت عنوان رأس المال.

في الواقع، يتطلب الامر كثيرا من اعمال النجارة قبل ان تكون هذه الاخشاب غير المصقولة جاهزة ل ' لمسات الاخيرة '، وسرعان ما جره ما يلهيه عن مشغله. كلت ماركس قد امينع عن جميع الدعوات للأشتراك في المجموعات السياسية الجديدة منذ تفتت الرابطة الشيوعية عام ١٨٥٠ ل 'اعتقادي الجازم بان دراساتي النظرية لها منافع عظيمة للطبقة العاملة اكثر بكثير من الانخراط في منتديات وصلت،الآن، الى اوج ازدهارها '، لكن الفضول اجتاحه، في شهر سبتمر (ايلول) عام ١٨٦٤، عندما وصلته دعوى من الاجتماع الافتتاحي ل الجمعية الدولية للشغيلة، وهي تحالف انجليزي-فرنسي للنقابيين والاشتراكيين. وبرغم حضوره كمراقب غير مشارك فقط ، انتخب كعضو جديد في المجلس العام واصبح عام ١٨٦٥ ،عمليا، زعيما للتحالف.

وكانت هذه الزعامة التزاما اخذت من وقته الكثير. وتصف رسالة كتبها ماركس الى انجلز في شهر آذار عام ١٨٦٥ نماذج من انشغالاته خلال الاسبوع : صرفت مساء الثلاثاء وقتي مع المجلس العام ، في جو من الجدال استمر حتى بعد منتصف الليل، اعقبه، في اليوم التالي، اجتماع عقد في منطقة كوفنت كاردن احتفالا بمناسبة ذكرى الانتفاضة البولندية، اما يوما السبت والاثنين، فقد كرسا لاجتماعات اللجنة دارت حول 'المسألة الفرنسية '، كلا الاجتماعين استمرا حتى الساعة الواحدة صباحا، وكذلك يوم الثلاثاء الذي شهد مشادة كلامية طويلة وحامية بين اعضاء المجلس العام الانجليز والفرنسيين. واثناء هذه الاجتماعات 'يقتحم آخرون اجتماعاتنا لرؤيتي 'بموضوع يرتبط بمؤتمر حول حق المرأة بالاقتراع يعقد في عطلة نهاية الاسبوع القادم. ويتأوه ماركس صارخا : 'يا لضياع الوقت ! .' وكذلك كان انجلز يعتقد ايضا. لماذا يتوجب على صديقه ماركس ان يقضي ساعات للتوقيع على بطاقات العضوية والدخول في معمعة الجدال بين اعضاء اللجنة المشاكسين،في الوقت الذي كان بمقدوره الجلوس على طاولة الكتابة لإكمال رأس المال؟ وحذر انجلز ماركس بعد نوبة اخرى من المعارك الشرسة بين اعضاء الجنة الفرنسيين 'فكرت على الدوام بان الرفاقية الساذجة بين اعضاء الجمعية الدولية للشغيلة لن تستمر طويلا، فهذه الرفاقية ستمر بمراحل عديدة اخرى وستستهلك جزءا كبيرا من وقتك. '

وانتابت ماركس طوال صيف ١٨٦٥ حالات تقيؤ كل يوم (نتيجة للطقس الحار واضطراب المادة الصفراء) وابتلاءه بالدمامل. وتكلل كل ذلك بفترات انقطاع اجبارية عن الكتابة ضايقت ماركس كثيرا لأن - أخا جيني جاء من المانيا، وزوج الاخت من جنوب افريقيا، وابنة الاخ من ماسترخت. وهناك، ايضا، طابور الدائنين المألوف 'يدقون على بابي بالحاح كل يوم، ولم اعد اطيق ذلك ابدا .'ومع ذلك، وهو في خضم هذه العواصف الهوجاء، كان على وشك الانتهاء من تحفته المجهولة. وفي نهاية السنة، كان رأس المال عبارة عن مخطوطة من ١٢٠٠ صفحة، مجموعة من اشياء مختلطة بغير انتظام ومن كلمات متقاطعة، وخربشات يتعذر حل الغازها وفي نهار رأس السنة ١٨٦٦، جلس ليخط نسخة نظيفة، 'لاحسا المولود تنظيفا بعد آلام مخاض طويل .' ولم يستغرق هذا الامر الا عاما واحدا فقط. ولم تجعله آلام الكبد والدمامل يحيد عن هدفه: اما الصفحات القليلة المتبقاة فقد كتبها وقوفا على طاولة الكتابة عندما ادى انفجار الدمامل الى جعل جلوسه امرا شديد الأيلام. (اما مادة الزرنيخ، المسكنة المعتادة للآم فانها ' تشيع في حالة من البلادة الى حد كبير احتاج فيها الى بذل جهود مضاعفة لإبقاء عقلي يقظا(.' والتقطت عينا انجلز الخبيرة، فورا، مقاطع معينة في رأس المال حيث تركت الدمامل آثارها المزعجة، واتفق ماركس في الرأي معه بان الدمامل، ربما، صبغت بعض مقاطع نثره بالوان شاحبة. وصاح ماركس لاعنا ' على اية حال، يراودني الامل ان تتذكر البرجوازية دماملي في لحظات احتضارها، اي ملة من الأوغاد هؤلاء البرجوازيون!'

واختفت الدمامل حالما اكمل الصفحة الاخيرة. وقال له انجلز ' كان يراودني، دوما، احساس بان مؤلفك اللعين الذي استغرق منك وقتا طويلا لانجازه كان اساس سوء طالعك، وانك لن تخرج من دوامتك هذه الا بعد ان ترميه عن كاهلك.'

وبعد الاحساس 'بعافية وقوة تعادل ٥٠٠ فرس اصيل 'توجه ماركس الى مدينة هامبورغ، في المانيا، في نيسان (ابريل) عام ١٨٦٧ لتسليم المخطوطة والاشراف على طباعتها. ولم تؤثر على معنوياته العالية حتى الاخبار التي افادت ان الناشر يتوقع تسلم المجلدين التاليين قبل نهاية السنة.
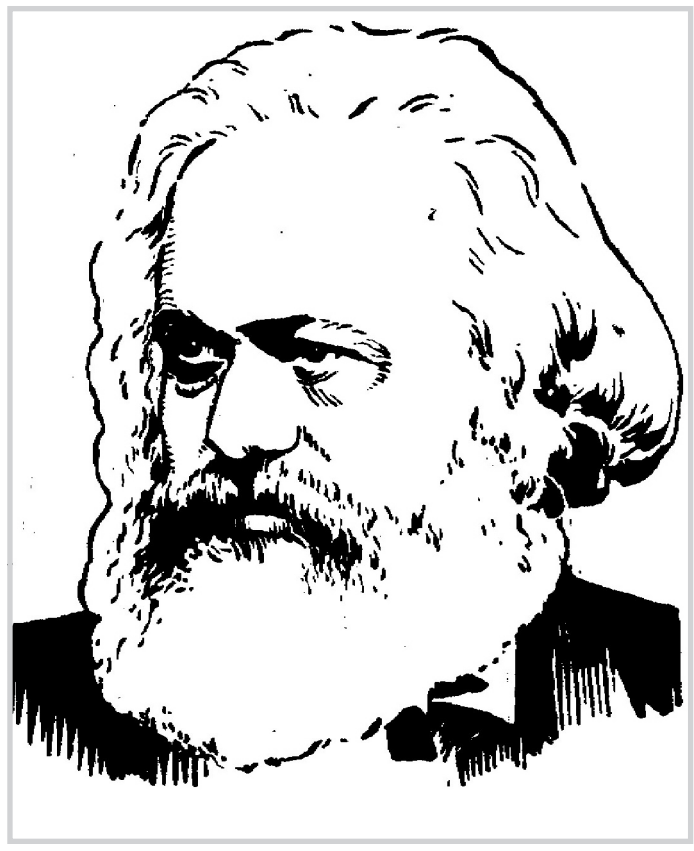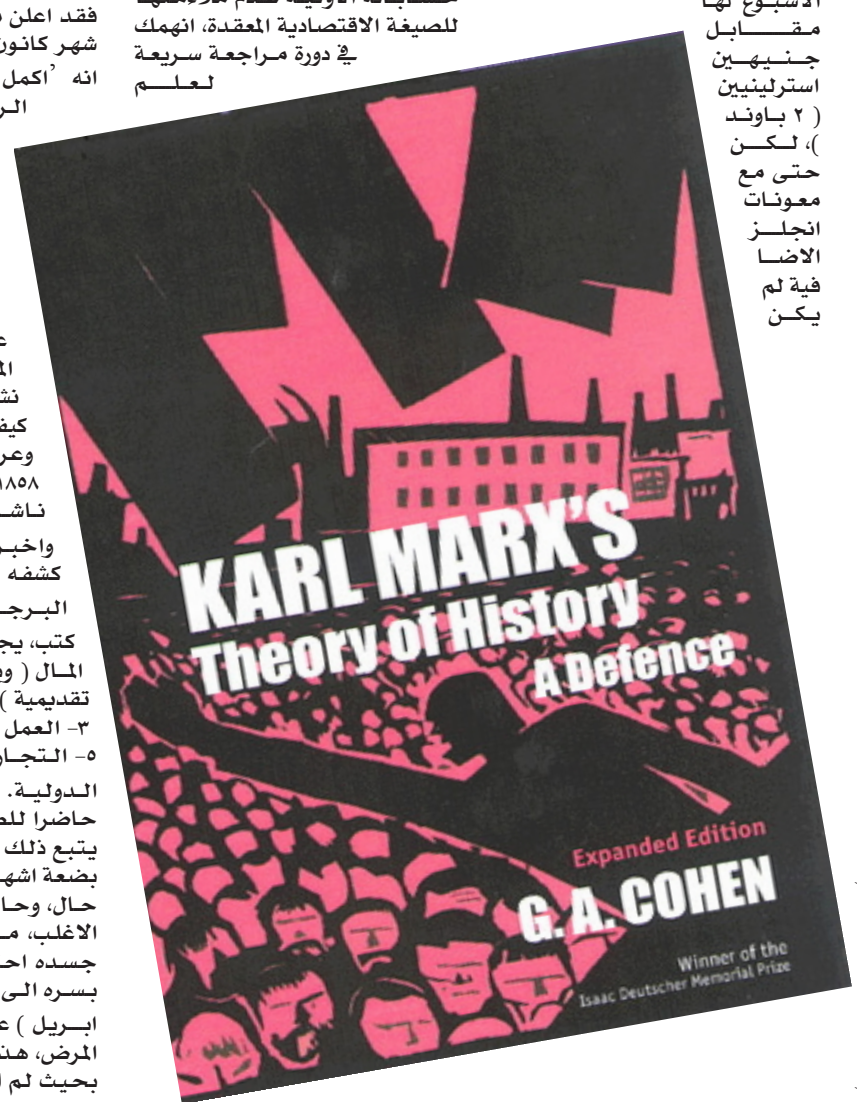
وافاد ماركس متنبئاً 'آمل واعتقد، بكل ثقة، بانه في غضون سنة، سيعترف بي الجميع، .'وشجعته ردود فعل قليل من اؤلئك الذين سمح لهم بالقاء نظرة على اجزاء من مؤلفه بالأمل على ان اسمه وشهرته ستدويان في ارجاء اوربا كلها. وكما جاء في كلمات جوهان جيورج اكاريوس ، حليف ماركس القديم في الرابطة الشيوعية والجمعية الدولية للشغيلة: 'يشهد المعلم الملهم، الآن، وبنفسه، طبع خلاصة الحكمة برمتها. '